إشكالية التماهي الحدثي

بين المستهل والخاتمة في رواية «وش الصبح»

للروائي المصري «هشام علي الديوك»

عن دار النخبة في القاهرة صدر للروائي المصري هشام علي الديوك رواية تحت عنوان «وش الصبح» في طبعتها الأولى لسنة 2017م، مزج فيها الروائي بين الخيالي والوثائقي بحرفية عالية فشكلت الرواية وحدة موضوعية متراصة مع خروج ذكي في بعض الأحداث عن المسار العام الأمر الذي ابعد الروائي من خلاله شبح الملل الذي قد يعتري المتلقي نتيجة تراتبية تطورات الأحداث.

اشتغلت الرواية في جانب كبير منها على الواقع وتوغلت في التركيبة الاجتماعية للمجتمع المصري وخصوصا تلك الطبقات المتوسطة الدخل والثقافة، فيما ركزت على حقيقة ملموسة يعترف بها معظم العرب هي ولاء المواطن المصري لبلده وولائه لأرضها ونيلها العتيد، ويذكرني الديوك في هذه الرواية بحقيقة ذكرها الفيلسوف الكبير وعالم الاجتماع بن نبي عن وطنية المصري وتفانيه، وسبب ذلك أرجعه

لجغرافية مصر ونهرها الوحيد الذي بنيت عليه اعرق الحضارات على الأرض بعد بلاد وادي الرافدين متمثلة بالحضارة السومرية ومن بعدها البابلية بشقيها «المملكة الأولى والثانية» وقال ما دام النهر واحد فلا ازدواج في الشخصية المصرية ولا شكّ في ولاء أهلها خصوصا تلك الطبقات الفقيرة ومتوسطة الدخل وهم الشريحة الكبيرة التي تسجل سبقا وطنيا في عصر يقول الديوك:

«في المقهى كان يجلس كالعادة في أحد اركانه «الأسطى صبحي» النجار مع مجموعة من أصدقائه «سمحان الميكانيكي» والاسطه عنبه» المكوجي وعم مليجي المسن والذي يبلغ الرابعة والسبعين عاما «ص10

هؤلاء نسيج المجتمع وهم طبقة الكادحين وهم من ابطال هذه الرواية فضلا عن شخصيات ستظهر تباعا وفقا لتطور الحدث الروائي، والقاعدة الاساسية والمنطلق نحو تطورات لاحقة مثلها هؤلاء، هم قلب المجتمع النابض بالحياة في المدينة العتيدة وكم كان الروائي موفقا في تجسيد الواقع حتى في مسميات ومهن الاشخاص الذين يمثلون القاعدة العريضة في بنية المجتمع عموما.

وبمجرد المرور على هذه الشخصيات تتلمس الطيبة والإخلاص للمهنة التي تُعد مصدر العيش ربما الوحيد والتي تكسب صاحبها بعض الشهرة في محيطه وبالتالي فإن أصحاب هذه المهن هم لَبَنة

المجتمع وملحه، ولا تخلو هذه الشخصيات من ميول وانحياز للوطن كما أتضح ذلك لا حقا، وثمة اشارة مهمة لظواهر اجتماعية سائدة في كل مجتمع استعرضها الروائي عززت من قيمة العمل باعتبار ان الديوك وضع رؤيته الخاصة وفلسفته لكل شخصية من هذه الشخصيات كما يراها هو من زاويته وليس كما تبدو للناس.

انتقد الروائي ووجه ووعظ بطريقة ذكية: يقول:

عادل شخص متعجرف مغرور ... سريع الانفعال طموحه ليس له حدود ولديه ميول مرضية تدفعه للاستعلاء ... فتجده يفرض نفسه بالقوة «ص67.

هذا الجانب النقدي لظاهرة سائدة في كل المجتمعات العربية على وجه التحديد تحسب للروائي لانها انتقدت الممارسات السلبية لمثل هذه الطبقة وقد حاول الروائي أن يوضح وجهة نظره بهذا الشأن على لسان ابطال روايته وهذا يعود بنا الى الدور الفعّال الذي يلعبه الادب في تصحيح المسارات في اطار المجتمع وطبقاته ونقد الروح الارستقراطية التي يتمتع بها بعضهم مقابل الطبقة المتوافقة مع نفسها والآخرين .

لقد حاكى الروائي الواقع وكم نحن بأمس الحاجة اليوم لثورة ابداعية ناقدة وناقمة على الواقع المعاش والذي حوّل الإنسان إلى آلة بلا مشاعر ولا أحاسيس.

أن القارئ المعاصر يشعر بالتعب من أوهام الحياة، ومتعطش للأدب الواقعي. وأن التقنيات الفنية للرواية التقليدية قد استهلكت وابتذلت، وها نحن تجاه مخاطر اجتماعية خطيرة مثل تلك التي ينتقدها الروائي هشام في روايته أمثال «تجارة الاجساد «التي غزت البلدان العربية بحجج واهية مخلفة وراءها واقع كارثي فبحجة العوز أو بحجة التمدن والتحضر تنتهك الاعراف والتقاليد السائدة وتشيع الرذيلة .

إن البقاء على الطرح الرمزي في الاعمال السردية والابتعاد عن الواقع هذه الاساليب اصبحت عاجزة عن الوفاء بحاجة التعبير بالقوة المطلوبة والعمق المنشود عن الأحداث الدراماتيكية لعصرنا الراهن.

ولا بد من البحث عن وسائل تعبيرية جديدة لتجسيد الواقع الجديد، الذي يتغير أمام أنظارنا بوتائر متسارعة. هذا ما فعله الديوك في هذه الرواية والذي عاد من خلالها بنا الى الزمن الجميل والسمات الأساسية التي تحكم علاقات الناس وتلك البراءة الروحية التي كانت تمثل قاعدة عامة، ولكم آلمني موقف حسام المشين من نرمين هذا الفعل الذي يفكك الاسرة ويصب في خدمة أصحاب الغرائز المريضة وتستدعي الالتفات لها ومعالجتها سعيا من الروائي الى عودة النقاء وسمو الفضيلة .

لم تكن «نرمين» ضحية من ضحايا المجتمع وفريسة سهلة أمام طبقة يمثلها «حسام» وهي من الطبقات الشاذة التي تعيش في مستنقعات

الرذيلة وتحاول جاهدة إلى إشاعة السلبي في المجتمع وهذا ما أشار إليه الروائي بمرارة.

ولم تبتعد الرواية عن الاجواء السياسية السائدة فمنذ البداية لمح الروائي لما يحصل من أحداث في معمورتنا العربية «عن قيام شاب عربي بإضرام النار في جسده «ص16 .

وهو استشعار المخاطر السياسية المحيطة بالمنطقة وحالة الهياج على السلطات السياسية العاملة على تغييب دور المواطن وسوء ادارة المال والقوى البشرية لما يحقق كرامة وسعادة الانسان .

ارتبط هذا المستهل بخاتمة الرواية تماما فالاشارة الذكية التي تضمنتها «ص16» ارتبطت بالثورة الشعبية العارمة التي حصلت في مصر عام 2011م وأدت الى التغيير المنشود سواء كان هذا التغير قد مثّل طموح الثائرين أم لم يمثله المهم هنا هو حصول ما كان متوقعا فعلا.

نجح الروائي في ربط بداية روايته في تيسير ولوج القارئ إلى عالم النص الروائي ومفاجآته، وجذب اهتمامه، وبناء عالم الخيال وإطلاق الأحداث، وإضفاء الحركية عليها. وتمثلت النهاية بقدرة المتلقي على إحكام تلك النهاية وربطها بالحدث الروائي من جانبين مهمين سياسي وعاطفي وهذا ما حصل لـ «نرمين» التي تطهرت من الخطيئة بالموت .

استطاع الديوك ترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً وصولا إلى الخاتمة وسارت الأحـداث في سلسلة متتابعة وبشكل منطقي من البداية المشوّقة حتى النهاية الحزينة. تمثلت هذه النهاية بـ مأساوية الحدث العجلة المشؤومة دعست جسد نرمين، وارتطم رأسها بقسوة الرصيف وبقيت على قيد الحياة لكنها فارقت الحياة في المشفى، انتهى كل شيء وبقيت «نرمين «رمزا للتضحية والوطنية والطهر فما فعلته كان خارجا عن إرادتها بكل الأحوال.

شكلت هذه الرواية كشفا دقيقا للأحداث التي رافقت التغيير السياسي في مصر ولست مع الروائي بأن احداث الرواية جميعها من صنف المتخيل السردي، الرواية صوت جهوري واضح لما حصل سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي، سعى الديوك من خلالها إلى تسليط الضوء على الواقع المصري في تسلسل زمني مرتبط بطبيعة التغيير مع حذر شديد في التعاطي مع الحدث السياسي وبجرأته المعهودة أوصل الديوك للمتلقي اينما كان تفصيلات غاية في الدقة.

وثمة إضاءة تستوجب الالتفات لها هي اللغة المحكية التي جاءت عليها معظم الحوارات التي ترشح الرواية لعمل فيلمي غاية في الأهمية.